فن يستيقظ

للأديب نورى الراوى

فهم العربى جمال الكون بكل حواسه فأطلقه شعراً يفيض باختلاج حسه القصىّ ، ثم أنغمه نغماً فى صميم الليالى الأندلسية البيضاء ... وعاد فمات فى عتمة الفسق التركى ، فكانت بقيته اليوم بين حشرجة الماضى ويقظة الحاضر نسيماً فى نفس مجروح ، ونسمة من نسماته الندية تفطلق اليوم بعد فترة جمام كادت تطمس على خصائصه الأصيلة فتحيلها إلى العدم أو النسيان ، ولكن الله الذى حفظ الروح العربية الإسلامية دهوراً طوالاً أراد أن يوقظها فى صفوة أبنائها اليوم فكان ما أراد الله

وشهدت العصور الحديثة أكل الفوى فى ثورة تشمل الروح والجسد ، يدعمها الإيمان ويشدها الحق وتظللها الحرية ، فأدركت أن وراء هذه الأنقاض المفهورة نفساً يريد أن يكون لهيباً من جهنم ، وشواظاً من بركان

ولكن الزمن الذى اتسع لأمجاد الفن العربى فى مختلف عصوره ، زحف زحفته المدوية ، فطوى بين أثنائه أياماً كانت شجىً فى الحلق ، ليلبس ثوب هذا اليوم الحديث فى سورة من التأريخ . إن وراء المجد الذى كان بالأمس ، قوة من المعنى أدارت رحاه ، ونواة من الفن حفظت نوعه ، فمضى يخط تاريخه فى جلال الظافر وكبريائه ، حتى دهمته الذئاب الدخيلة ! فعبثت بروحانيته كما تعبث الريح بالرمال وأجهزت على فنيته فحطمتها

وبين عصرين من عصور التاريخ ، تقلبت فيها الأحداث ، وتخبطت فيها الخطوط ، وتعاقبت على صفحاتها الأيام ، مشى الفن العتيد بخطوب جسام كادت تشرف به على الهلاك ... ولكنها الروح التى لزمته فى صحارى الحجاز ودلته فى بلاد المجد المفقود وهدهدت أعطافه على ضفاف ردى والفراتين عادت فاندفقت بين أضلع سادها الهدوء أزماناً ...

لقد كان الفن العربى يوصل الأمة بمعنى من الجلال يسمو بها عن المدارك الدنيا إلى أجواء أمتع وأمنع حتى إذا ما رفعت أبصارها عن الأرض ... حتى إذا ما انعتقت من أسر المادة ، فهمت الفضيلة ؛ فسادت بالرحمة وحاربت بالأيمان ... وكان هذا سر الخلود

حيثما تكن الأمة من المكانة يكن حبها للفن ، لأن النفسيات مطلب من مطالب الحياة الوضيعة التى تعيش لتموت ، لا الحياة التى تعيش لتدوم ... لتخلد .. لتقول للتأريخ ها أنذا فاكتب ...

ولكنه الفكر العربى الجبار يبرهن على وجوده ، يبرهن على قوته ، يوم يعرف أن للحياة منازع غير ما علمته إياه البهيمية الأولى فى الغابات والكهوف ! ... ليكون أستاذاً فى تلقين المثل العليا لكل من يلوك اللفظ فلا يقع لسانه إلا على الأكل ... والنوم .. والاباش ...

هنا يقف الفكر الحديث عند حد تنتهى به سياحته ، الفكر الحديث الذى يمجد الآلة ويمجد المادة ويستعذب الوقوف أمام الصنم الجبار ؛ ليجد أن العربى سبقه فى الحياة وسبقه فى الفكر وسبقه فى التأسيس

برهان واحد من براهين أشتات نقف منه على حياة أجيال ماتت ... لنكون نحن بقيتها على الأرض نوطن النفس على حمل هذا العبء الذى حمله الجدود أزماناً

فى هذا المدى الوسيع الذى يشمل الصين فى أقصى الشرق ويقف عند أزباد بحر الظلمات ! بذر العربى بذور فنه الأولى ، فكان الجامع الأموى فى الشام يطاول بمآذنه السماء ، وكان المسجد الأقصى يهزأ بالدهر الغلاب ، وكانت معجزات الأندلس وعظائم بغداد شاهدة على ذلك الخلود . هو الغرس العربى ، يثمر رجالاً يمجدون الله ، ينتج مآذن تجلجل فوق سامقات رؤوسها كلمة : « الله أكبر » ...

ينتج فناً روحياً لم تسبقه إليه جهالات الأوربيين ...

هناك فى الصحراء ... الصحراء التى يضيع البصر فى مهامه مداها الوسيع ، ويسبح الفكر على منكب لجتها السمراء ، فما يزال يطفو ويرسب حتى يبلغ محجة تنقطع عندها أسبابه : تمخض الزمن الولود عن دين العلم والفن ، فكانت أول بسمة من بسماته الندية ترف على روابى الحجاز وترتعش فوق بطاح الجزيرة ، ثم لا تقف عند هذا حتى تفيض على العالم القديم

بأسره فتشمله . هنا يبدأ بنا السبيل فى سياحة مضنية طويلة ، تريد جهداً وأباً واصطباراً ...

لقد جاء الإسلام ، وفى النفس الجاهلية اعوجاج وهنجهية ، فأقام الأول وأغرق الثانية حتى ديأها لأن تتقبل المعانى الجديدة وتستوعبها . فيقودها إلى غاية أبعد منها وأسمى ألا وهى : الفتوح ونشر الرسالة . ولقد كان للفتح أول الأسباب غير المباشرة إلى نضوج الذوق العربى لاختلاط البادية بالمدينة والشمس بالظل وتكوين لون جديد له سمة الميشتين وطابع الحيانين ، وكذلك أجزل الفتح المال والمال وسيلة الفن إلى الكمال ، حيث أثمر هذا الاختلاط فكانت ثمرته تلك الحضارة الراسخة التى قال عنها بعض الإفرنج : إنها وليدة الحضارتين اليونانية والرومانية وما هى إلا عربية أصيلة الدم ؛ لها لفحة الشمس وثورة الرمال التى لا تهدأ ولا تثوب ...

هنا يدخل الدين بروحانيته فى عداد هذه الأسباب التى أسبغت على الفن لوناً من ألوان الجمال الراكد والتأثير العميق ... الدين الذى ارتقى بمعنويته إلى الله فعرفه ، وغار فى الأعماق فوقع على أسرار الكون وحقيقة الوجود ؛ ثم تلمس الخلود عن المادة فطاوعته فإذا هى ريازة تبهر العقول ، وإذا هى قباب تغرق فى اللازورد ، وإذا هى جوامع تبقى على الدهر باسم الله ...

أما النفسية الطليقة ... النفسية التى تجاذبتها عوامل البيئة الصحراوية المدنية ، فرسمت على أديمها صفاء السماء وكدرتها ، وخطت على صفحتها هدوء الطبيعة وثورتها ، فقد تغنت بلسان حسان ، وابن أبى ربيعة ، والمتنبى ، والمعرى ، وأبى تمام . فرجعت صدى هذه الأغنيات السنون ...

ما كان للعربى الأول أن يبرع فى فن التصوير ليعبر به عن خواطره وآماله ومثله ، ولكنه تكلم فصدق ، وقال فكانت أقواله لوحات ترسم ألوان مشاعره منطلقة ، حرة ، عارية ؛ وهذه وسيلة واحدة يتوصل بها ربيب الصحراء للتعبير عن خواطره ونزعاته ... لينقل كل ما يجيش به وجدانه من العواطف إلى أسماع تستلذ هذا الوقع الجميل وتستعذب هذه النغمة المطردة يلونها الزمن من حين إلى حين

على أن هذا الفن العريق الذى تتصل جذوره بأعماق الخيال البدوى كان أسبق وجوداً من بقية الفنون الأخرى

وعلى هذا السبيل المعهد تساوقت الفنون إلى البعث بعد أن كانت تثوى فى ركن من أركان العقل البدوى ساكنة سكون البركان الذى يحمل معانى الثورة والاندفاع

لقد كان للطبيعة العربية الفاعلية الكبيرة على الأحداث والتوليد ، وما الشعر إلا سورة من تلك الصور الممتعة التى عرفها العرب باسم « الآداب الرفيعة » ، وذلك حينما تركز المجتمع فى ظل المدينة وامتزج بعضه ببعضه ليكون هذا الفن الذى نشاهده فى قصور الحمراء وبرج الذهب وجنة الريف . . ليكون هذه الموسيقى الساحرة ترجعها نغمات « بلنسيا » ، على أسماع اللاتين من أبناء الغرب ، وفيها تتجلى الروح العربية الصافية بتأثيرها وعذوبتها وجمالها . .

* * *

ومشى الزمن يوسع الخطى ؛ فإذا بعبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس يقف على ربوة عالية ، يستشرف ملكه المضاع من خلال الهدب الرفاف بالدمع ... وإذا ذلك الخلود بجنانه وقصوره ، وأبهائه ومدارسه ، ومحاريبه وجوامعه ، يستحيل شيئاً فشيئاً إلى حلم ينطوى كلمح السراب ... ويهيم الشراع فى الفضاء :

ألا انقضى آخر أمل للعرب فى الفردوس . . . ثم تبقى تلك الجلائل شاخصة إلى السماء كأنما هى تستغيث بالله ... حتى يدركها الآن فتهوى صريعة الزمن العسوف ركاماً يسابق ركاما ... ولكن قتابل فرانكو تريد ولا يهمها أن تكون صفحة سوداء فى وجه التاريخ .

* * *

إن الاتجاه القوى فى العراق بادرة من بوادر اليقظة فى الأمة العربية فيجب أن يكون له نصيب من الروح كما يجب أن يكون له نصيب من المادة

وها نحن اليوم على وشك الدخول فى حياة جديدة مغايرة لتلك الحياة التى تصرمت بين جهل الرعية وظلم السلطان واستبداد الدخيل . وآن للفن أن يستيقظ وينشط فيأخذ مكانه كسبب خطير من أسباب الحضارة الكاملة ، وعامل من عوامل النهضة القويمة ...